الاحتكار

في الشريعة الإسلامية

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

المركز الرئيسي للتوزيع (مركز مؤقت) بيروت مستديرة شاتيلا .قرب المعهد الفني الإسلامي
تلفون :(خليوي ٨٦٦٠٤٤)٦٣٢٤٨٨ (٠١) ص.ب ٢٥/٢٤٧ الغبيري

سماحة آية الله الإمام الشيخ محمد مهدي شمس الدين

الاحتكار

في الشريعة الإسلامية

بحث فقهي مقارن

المؤسسة الدولية للدراسات والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الكرام المنتجبين.

أما بعد:

يقول الله تعالى في كتابه العزيز ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

من أهم معالم وسمات المجتمع الحديث القوة الاقتصادية للدول والجماعات التي توجه المسار الاجتماعي والسياسي فنرى أن النظام الاقتصادي يرتبط ارتباطاً مباشراً بالنظام السياسي ويلقي بكل ظلاله على حركة المجتمع وثقافته.

ومن هنا كانت رؤية الاسلام للمشاكل والازمات التي قد يتعرض لها المجتمع موضع اهتمام اساسي ومحوري فنرى المعالجة الموضوعية والاحكام الالزامية بضرورة مراقبة النفس وردعها عن كل عمل يمكن أن يؤثر سلباً على حسن سير المجتمع اقتصادياً.

ومن هذه المواضيع الحساسة التي كانت مصدر مشكلة مستعصية

على مدار العصور وتنوع المجتمعات الاحتكار الذي هو جمع الطعام وحبسه عن الامة لأجل زيادة في الربح غير مشروعة يتحكم المحتكرون فيها بقوت الناس، وهذا مما يؤدي الى ربط مصير او توجيه الامة لمنحى يتفق عليه المحتكرون.

وهذا الاحتكار يشمل ايضاً احتكار السلطة والتفرد بها وتضييع حقوق المجتمع وسلب حريته لعدم قدرته على الرد، ومن هذا المنطلق وغيره رأى سماحة الامام شمس الدين أن التصدي لهذه المشكلة أمر ضروري من ضرورات الدين وأن مواجهتها ووضع الحلول لها من اولى واجب العالم والقائد حيث عالج الإمام هذه المشكلة من وجهة نظر اسلامية شاملة فتطرق الى آراء المذاهب الإسلامية كافة.

فكان هذا الكتاب الشامل والوافي والمؤيد بالدليل القاطع من كتاب الله وسنة نبيه وآله الاطهار عليهم صلوات الله وسلامه.

وقد رأت المؤسسة الدولية للدراسات والنشر أن تعيد طباعة هذا الكتاب باخراج جديد وحلة جديدة سائلين الله ان ينفع الناس ويرضي الله وهو الهدف والمبتغى.

المؤسسة الدولية للدراسات والنشر

بيروت ٣/ ١٢/ ١٩٩٧ م

الموافق ٢ / شعبان/ ١٤١٨ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

المال والسلطة والعذاب

سخر الله الحكيم الرحيم سبحانه وتعالى للإنسان الأرض وما عليها وما فيها من ثروات وخيرات، وما تنتجه وتتحول إليه من ثروات وخيرات حين يعالجها الإنسان بعقله ويده.

وسخر له السماء وظواهر الطبيعة ونواميسها من الليل والنهار والحر والبرد والرطوبة والجفاف، وحركة الأفلاك.

وقد بيّن الله تعالى ذلك في القرآن الكريم في آيات كثيرة:

١ ـ ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[1].

٢ ـ ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ

---

(١) سورة إبراهيم، مكية: ١٤/ الآيات: ٣٢ـ ٣٤.

وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٌۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[1].

٣ ـ ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[2].

وغير ذلك من الآيات.

سخر الله هذا كله للإنسان، لكل إنسان من ذكر وأنثى، وقوي وضعيف، ليكون ذلك مظهراً من مظاهر خلق الله ﴿ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾[3] ومن مظاهر تدبير الله وحكمته ﴿ ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[4]. وليكون تعبيراً عن قدرة الله التامة الشاملة، وليحقق بذلك تكامل الإنسان من خلال التفاعل مع الطبيعة والكون، فيحقق عبوديته لله بطاعته له في خاصة نفسه، وفي علاقته التكاملية مع الطبيعة، وفي علاقته التكاملية التفاعلية مع غيره من الناس والجماعات.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[5].

---

(١) سورة النحل، مكية: ١٦/ الآيات: ١٠ ـ ١٤ ولاحظ الآية: ٨١.

(٢) سورة الجاثية، مكية: ٤٥/ الآيتان: ١٢ ـ ١٣. وغيرهما، فلاحظ: سورة الحج، مدينة: ٢٢/الآيات: ٣٦ و ٣٧ و ٦٥. وسورة لقمان، مكية: ٣١/ الآية: ٢٠، وسورة البقرة، مدنية: ٢ الآية: ٢٩ وسورة النحل، مكية: ٢٧/ الآية: ٦٠.

(٣) سورة المؤمنون، ٢٣/ الآية: ١٤.

(٤) سورة طه، ٢٠/ الآية: ٥٠.

(٥) سورة الحجرات، مدنية: ٤٩/ الآية: ١٣.

﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾[١].

وهذا هو جوهر استخلاف الله للإنسان في الأرض[٢].

لقد فطر الله الإنسان على مبدأ الخير والعدل والإحسان:

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾[٣].

ولذا فإنه لو ترك وفطرته الأصلية لكانت علاقاته مع الطبيعة ومع المجتمع علاقات الخير والعدل والإحسان.

ولكن الإنسان ليس آلة مسيرة بغرائزها، وليس محكوماً في سلوكه بقوانين صارمة، لأن جوهر الاستخلاف يقتضي (التكليف) والتكليف يقتضي الحرية والاختيار.

ومن هنا فإن بعض الناس ـ أفراداً وجماعات ـ يطغى، فيستجيب لدوافعه الغريزية في علاقته مع الطبيعة والمجتمع، دون أن يضبطها ويكبحها عن الغلو بضوابط الخلق وهي مبادىء الخير والعدل والإحسان: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[٤].

يتميز بعض أفراده أو جماعاته بوجه من وجوه القوة: في الجسم، أو الفكر والعقل، أو العدد، أو المال، فيستخدم قوته المتميزة في الاستحواذ على المزيد من الثروة، واحتواء المزيد من القوة التي يعيد استخدامها أيضاً في سبيل الاستحواذ على المزيد.

---

(١) سورة المائدة، ٥/ الآية: ٢.

(٢) سورة البقرة، مدنية: ٢/ الآية: ٣٠ وسورة الأنعام، ٦/الآية: ١٦٥ وسورة يونس، ١٠/ الآية: ١٤ و ٧٣ وسورة فاطر، ٣٥/ الآية: ٣٩ وسورة الأعراف، ٧١/ الآية: ٦٩ و ٧٤ وسورة النحل، مكية: ٢٧/ الآية: ٦٢.

(٣) سورة التين، مكية: ٩٥/ الآية: ٤.

(٤) سورة إبراهيم، مكية: ١٤/ الآية: ٣٤.

وقد كشف الله تعالى عن هذه الحقيقة التي تلازم الاجتماع البشري في عدة آيات:

١ ـ ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾[1].

٢ ـ ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾[2].

٣ ـ ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾[3].

وهذا الإنسان يترجم قوته المادية في المال (النقود والأرض والسلع) إلى سلطة. يتسلط بنفسه وبأعوانه، مباشرة أو من وراء ستار، على غيره من الناس. وهو يستخدم سلطته في قمع من دونه في القوة والثروة والسلطة، خشية أن يطالبوا بحقهم في خيرات الأرض، وبحريتهم وكرامتهم وحقهم في التصرف بأنفسهم.

فتتحول سلطته إلى طغيان، سافر في حالات، ومقنع في حالات، ولكنه يصادر حرية الإنسان وكرامته ورزقه في جميع الحالات.

وقد يكون هذا الإنسان فرداً في جماعة صغيرة، أو أفراداً يتخالفون فيما بينهم في جماعة كبيرة.

وقد يكون جماعة أو جماعات متحالفة في شعب صغير أو كبير تفرض منطق قوتها وسلطتها على الشعب كله.

---

(١) سورة الفجر، مكية: ٨٩/ الآيات: ١٥ ـ ٢٠.
(٢) سورة العاديات، مكية: ١٠٠/ الآيات: ٦ ـ ٨.
(٣) سورة العلق، مكية: ٩٦/ الآية: ٦.

وقد يتحكم شعب قوي غني ربِّي على عقيدة التفوق في مجموعة من الشعوب الضعيفة.

وقد تتحكم مجموعة من القوى العالمية بالعالم كله.

وكل هذا حدث في التاريخ، وهو يحدث في عالمنا المعاصر، وهو أكبر وأخطر علل النظام الدولي السائد الآن.

وقد بيّن الله تعالى هذه الحقيقة التاريخية في عدة مواضع، وعلى مدى تاريخ الشعوب مع حركة النبوات في مواجهة طغيان الأفراد والجماعات على الجماعات والشعوب المستضعفة:

١ ـ ﴿. . قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾[1].

٢ ـ ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾[2].

٣ ـ ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ . . . فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾[3].

٤ ـ ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾[4].

٥ ـ ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾[5].

٦ ـ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ

(١) سورة البقرة، مدنية: ٢/ الآية: ٢٤٧.
(٢) سورة القلم، مكية: ٦٨/ الآيات: ١٠ ـ ١٤.
(٣) سورة الكهف، مكية: ١٨/ الآيات: ٣٢ ـ ٣٤.
(٤) سورة مريم، مكية: ١٩/ الآية: ٧٧.
(٥) سورة الهمزة، مكية: ١٠٤/ الآيتان: ١ ـ ٢.

﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[١].

وغير ذلك في القرآن والسنة والتاريخ كثير.

وترزح الجماعات الصغيرة، والشعوب الصغيرة والكبيرة، والأمم، تحت نير فرد، أو مجموعة، أو تحالف أفراد أو مجموعات، مهانةً مذلّة مسلوبة الإرادة والكرامة، لاهثة وراء الأمن ووراء الرغيف، تتلخص حياتها في هم فيزيولوجي واحد: أن تشبع وتبقى حية.

ولكل حقبة من الدهر ومرحلة من الحضارة صيغتها في الاستحواذ والطغيان، وافتراس إنسانية الإنسان من جانب، والخضوع والمذلة، واللهاث وراء الأمن والرغيف من جانب آخر.

وقد طوت الإنسانية في مسيرة العذاب هذه أحقاباً، حتى وصلت في نموها وصيغها التنظيمية للمجتمع وللعلاقة مع الطبيعة والعالم إلى صيغتها الحاضرة: الدولة الحديثة، الرأسمالية والإمبريالية، ورأسمالية الدولة، وحكم الحزب الواحد.

وقد كانت هذه السيطرة على خيرات الأرض في جميع صيغها القديمة والحديثة مصدراً لعذاب الإنسان: الإنسان الفرد، والأسرة، والجماعة الصغيرة، والشعب الكبير. هذا الإنسان الذي يبحث عن الكرامة والأمن، وعن الكفاية في العيش، وعن سبل النمو والازدهار الفكري والروحي والمادي.

وتعاظم أمر هذه السيطرة في هذا العصر حتى غدا مصدر عذاب وهوان شعوب وقارات برمتها في إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية.

وكان سلطان المال ـ السلطة ـ ولا يزال بجميع صيغه يلاحق هذا الإنسان دائماً في كرامته، وأمنه، وعيشه، وحريته. ففي مقابل الطعام أو

(١) سورة سبأ، مكية: ٣٤/ الآيتان: ٣٤ ـ ٣٥.

العمل أو الأرض كانت ترتهن حرية الإنسان ـ بل كل وجوده ـ للحاكم ـ الإله، وللسيد مالك رقيق الأرض والجسد، وللإقطاعي، وللرأسمالي، وللشركات العظمى، وللشركات متعددة الجنسيات، وللطبقة الحاكمة، وللحزب الحاكم، بدون أية حماية أو ضمانات. فلا القوانين ولا الشرائع ولا الأعراف والتقاليد كانت قادرة على حماية هذا الإنسان من بطش سلطان المال المنظَّم مع السلطة السياسية وأدواتها.

حتى لقد غدت المحافظة على الحياة بالحصول على الغذاء الضروري لدى شعوب بكاملها في إفريقيا وآسيا السمة الثابتة لحياة الإنسان في هذه الشعوب، في ليله ونهاره، وتحول هذا الهم إلى غاية تختصر الحياة كلها. فغاية الحياة أن يستمر الإنسان حياً. وبهذا تحول الإنسان ـ هذا لمخلوق النبيل العظيم الذي كرمه الله[1] ـ إلى مجرد حيوان فيزيولوجي.

لقد حول هذا المخلوق الشرير المتكوِّن من تحالف المال والسلطة حياة الإنسان إلى سلسلة متصلة الحلقات من العذاب النفسي والجسدي، والانحطاط الروحي والأخلاقي.

وكان هذا المخلوق الشرير منذ وجد ـ ولا يزال ـ يبحث عن الفرائس ليتغذى بها ويمد نفسه بأسباب البقاء والنمو. وكانت هذه الفرائس التي يلتهمها ويغذي نفسه بها هي الإنسان.

١ ـ في أصل طبيعة هذا المخلوق الشرير عذاب الإنسان حين يجعل من حياته كلها هماً يستغرق أقطار نفسه وأنحاء وجوده كلها في البحث عن الغذاء والخوف من فقده، وبذل الكرامة والحرية في سبيل ذلك بإخضاعه وخضوعه لآلية المال ـ السلطة، وهذا ما يجسد عذاب الإنسان في خوفه وإذلاله.

---

(١) سورة الإسراء، مكية: ٢٧/ الآيتان: ٦٢ و ٧٠: قال: ﴿أرءيتك هذا الذي كرَّمت عليَّ... ولقد كرمنا بني آدم، وحملناهم في البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾.

٢ ـ وفي أصل طبيعة هذا المخلوق الشرير ـ بما هو تكوين سياسي ـ اقتصادي مصادرة أو تزوير حرية الإنسان وإرادته في اختيار كينونته ومصيره. وهذا يتم في بعض الحالات بصورة سافرة وفي بعض الحالات ـ خاصة في هذا العصر ـ يتم بصورة مقنَّعة. وبذلك يتم إخضاع الإنسان للإرادة السياسية والمصلحة السياسية التي يقتضيها هذا المخلوق، من دون مبالاة بمصلحة الشعوب التي يتحكم بمقدراتها ومصيرها.

٣ ـ وفي أصل طبيعة هذا المخلوق ـ في بحثه عن النمو والبقاء ـ أن يجمع خصال الشر كلها: (الإذلال، والاستعباد، ومصادرة الحرية والكرامة، والتخويف، وامتصاص كل قدرة في الشعوب التي يحكمها أو يتحكم بها) في خصلة واحدة هي حرمان الإنسان من خيرات الأرض وإبداعات العمل البشري بالاحتكار الذي يمارسه هذا المخلوق الشرير لامتصاص قدرة الناس، ولإذلالهم، ولإلغاء إرادتهم السياسية بفرض إرادته وسياسته عليهم.

لقد كان الاحتكار على مدى العصور كلها محنة عامة للإنسان. مارسه الأفراد ضد الجماعات، ومارسته المجموعات والتحالفات التجارية ضد الجماعات والشعوب، وفي عصرنا هذا تمارسه الدول الاستكبارية والشركات المتعددة الجنسية ضد بعض الشعوب في حالات، وضد معظم العالم في حالات، بهدف الابتزاز الاقتصادي، ولشل إرادتها السياسية وإخضاعها لإرادة هذا المخلوق الشرير.

لقد جاعت شعوب بكاملها، ودمر اقتصادها وسلبت إرادتها وكرامتها، مع وجود وفرة عظيمة من خيرات الأرض وانجازات العقل والعمل البشري، لأن هذا المخلوق الشرير يحتكر هذه الخيرات وهذه الإنجازات ولا يعطي النزر القليل منها إلا بشروط تغلُّ إرادة الدول والشعوب، وبدون ذلك يموت مئات الألوف في إفريقيا وآسيا جوعاً ومرضاً، ويعيش الآخرون على حافة الحياة والموت حياة مشلولة منحطة خالية من أي معنى سوى البقاء، عاجزة

عن أي قدرة على الإنجاز المادي والمعنوي. وتعطل قدرات هذه الشعوب على استثمار خيرات أرضها ومياهها وثرواتها الأخرى ومواهبها العقلية لأنها لا تملك المال الكافي والخبرات الكافية التي لا تباع ولا تقرض ولا تعار ولا توهب إلا بشروط تلغي الوجود المعنوي والاستقلال والكرامة لهذه الشعوب، وتجعلها مرتهنة دائماً لإرادة هذا المخلوق الشرير.

هذا في سياق.

وفي سياق آخر كان يحدث شيء آخر.

كان التعليم الإلهي المتمثل في حركة النبوات، وما حمله الأنبياء والرسل من شريعة الله، ينهج للإنسان سبيلاً آخر في شأن المال والثروة ينسجم مع فطرة الله، ومع غاية خلق الإنسان والطبيعة، وخلافة الإنسان على الأرض.

هذا النهج الإلهي وقادته من الأنبياء والرسل كان دائماً في مواجهة غريزة الإنسان الجامحة في حب المال والسلطة، وفي مواجهة المخلوق الشرير الذي يتولد منهما.

وغاية هذا النهج في هذا المجال ترشيد الغريزة وردها إلى الإطار الحياتي ـ المجتمعي الذي تكون فيه قوة أخلاقية بانية خيرة في المجتمع بدل أن تكون قوة شيطانية مدمرة فيه. وتكون ضمانة لإنسانية الإنسان وكرامته وتقدمه وتكامله بدل أن تحوله إلى مجرد كائن حيواني فيزيولوجي.

والنقطة المركزية في هذا النهج هي أن المال والسلطة ليس لهما قيمة ذاتية موضوعية، وإنما هما وسيلة لإشباع حاجات الإنسان، وأداة لتحقيق غاية الاستخلاف في الأرض، فإذا تحولا عن وظيفتهما تغدوان لعنة وجريمة يجب التخلص منهما.

ومن أجل ذلك جاءت شريعة الإسلام بتشريعات اقتصادية ومالية تنظم

وجوه حياة الفرد والجماعة والمجتمع كلها، وتهدف إلى جعل الاقتصاد والمال وما يلازمهما من سلطة قوةً خيرة بانية تنسجم مع غاية الله من خلق الإنسان، وتحول دون انقلاب الثروة إلى لعنة وشر حين تتركز في يد واحدة أو أيد قليلة، فيولد من ذلك الطغيان وعذاب وحقارة الإنسان.

وتعبر الآيات المباركة التالية عن المبدأ الأساس الحاكم والموجه للتشريع الإسلامي كله في الشأن الاقتصادي والمالي:

١ ـ قوله تعالى: ﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾[١].

٢ ـ ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾[٢].

وهي ظاهرة في أن الملكية الشخصية هي ملكية استخلاف، وعندما تواجه حاجة عامة من حاجات الجماعة والمجتمع فإن أحكام سلطنة المالك على المال تتكيف وفقاً لهذه الحقيقة، وهذا خط عام في الفقه الإسلامي تعرض له الفقهاء في مواضع متعددة من أبواب الفقه بصورة مجملة في بعض الحالات ومفصلة في بعض الحالات.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾[٣].

٤ ـ قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[٤].

٥ ـ قوله تعالى: ﴿ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ﴾[٥].

---

(١) سورة الحديد، مدنية: ٥٧/ الآية: ٧.
(٢) سورة هود، مكية: ١١/ الآية: ٦١.
(٣) سورة النساء، مدنية: ٤/ الآية: ٢٩.
(٤) سورة البقرة، مدنية: ٢/ الآية: ١٨٨.
(٥) سورة الحشر، مدنية: ٥٩/ الآية: ٧.

فهذه الآيات تعبر بوضوح عن موقف الشريعة من قضية الاقتصاد والمال وما يتولد عنهما من سلطة، أو تحالفهما مع السلطة، والخطر العظيم على الجماعة والمجتمع من ذلك.

وقد نبه الله تعالى في القرآن في عدة مواضع على حالات تاريخية تحالف فيها المال مع السلطة فأنتج هذا التحالف الانحراف والطغيان، فمن ذلك.

١ ـ قوله تعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[1].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾[2].

ولم يجعل الإسلام من مسألة الاقتصاد والمال مسألة قانونية تقنية محضة، وإنما ربطها بوشائج كثيرة ومتنوعة بالجانب الإنساني، والعاطفي، والأخلاقي في قلب المسلم وضميره، فجعل من العفة، والمواساة، والإجمال في الطلب، والشعور بمشاركة الناس في معاناتهم واشتراكهم في خيرات الأرض وجميع نعم الله حقائق حية في ضمير المسلم وقلبه.

وانطلاقاً من هذا المبدأ التشريعي وعلى أساسه، وفي هذا المناخ الأخلاقي العاطفي الإنساني، تضمن التشريع الإسلامي في الشأن الاقتصادي والمالي تحديد وسائل وأساليب تملك المال، وإدارة المال واستثماره، وإنفاقه في المجالات التالية:

١ ـ حدد الوسائل والأساليب المشروعة وغير المشروعة للتملك،

---

(١) سورة النساء، مدنية: ٤/ ١٦٠ ـ ١٦١.

(٢) سورة التوبة، مدنية: ٩ الآية: ٣٤.

سواءً في ذلك حالة توليد الثروة من الطبيعة أو توليد الثروة من الخدمات في المجتمع. فلم يطلق حرية التملك وحيازة الثروة.

٢ ـ حدد الوسائل والأساليب المشروعة وغير المشروعة لإدارة المال واستثماره. فلم يطلق حرية المالك في استثمار المال وتنميته.

٣ ـ شرع الأحكام الكفيلة بالحيلولة دون تمركز الثروة في أيد قليلة، والأحكام الكفيلة بتفتيت الثروة لإعادة شيوعها في مساحة أكبر، وذلك بتشريع الضرائب المالية: الزكاة، والخمس، والكفارات، ونظام الميراث الإسلامي.

٤ ـ شرع الأحكام الكفيلة بتمكين السلطة الشرعية والمجتمع من الردع في حالة عصيان التشريعات المشار إليها بالعقوبات الزجرية الرادعة بالحجر والمصادرة والتعزير وتحديد سلطة المالك وغير ذلك مما له أحكام منصوصة أو يدخل في سلطة الحكومة الشرعية ومؤسسات المجتمع الإسلامي الأخرى.

وربما كان التشريع الإسلامي الخاص بمسألة الاحتكار من أكثر التشريعات الإسلامية أهمية في الحقل الاقتصادي والمالي، سواء في ذلك باعتباره وسيلة للتملك والإثراء أو باعتباره وسيلة لتنمية المال واستثماره.

ويظهر من كثرة النصوص التي وردت في السنة الشريفة عن الاحتكار والمحتكرين، عناية الشارع المقدس الفائقة بالحيلولة دون نشوء هذه الآفة، وبمعالجتها حين تظهر في المجتمع.

وهذا يكشف عن خطورتها على المجتمع واستقراره وتماسكه وانتظام الحياة فيه وحرص الشارع المقدس على وقاية المجتمع منها ومن آثارها.

وقد غدا الاحتكار في العصر الحديث أحد أخطر الآفات الاقتصادية ـ السياسية في المجتمع الدولي وأحد أخطر عيوب النظام الدولي الحديث،

خاصة بعد الحرب العالمية الثانية.

فإن تنظيم المجتمع الحديث وتطوره الذي كوّن حاجات جديدة ضرورية يتوقف انتظام الحياة الخاصة والعامة على تلبيتها وسدها من جهة، وتشابك المصالح الدولية ومصالح الشعوب من جهة أخرى، ونمو مبدأ الاعتماد المتبادل بين جميع الشعوب تقريباً في تبادل السلع والخبرات والخدمات من جهة ثالثة ـ وفي مقابل ذلك نشوء القوى العظمى التي تملك منفردة قدرات مالية واقتصادية وعسكرية وعلمية لا يملكها معظم دول وشعوب العالم الأخرى مجتمعة، قد أعطى لهذه القوى قدرة مطلقة على التحكم الشامل بمصير الجنس البشري كله تقريباً.

هذا الوضع العالمي الجديد جعل من موارد الطعام، ومنتجات الصناعة. والمواد الخام، سلعاً استراتيجية تملك قوة التحكم بانتاجها وبيعها وتداولها هذه القوى العظمى بالدرجة الأولى وقوى الدرجة الثانية في النظام الدولي الحديث.

وهذا ما جعل الشعوب المستضعفة في العالم تحت سلطة هذه القوى العظمى المتحكمة، حيث إنها تمارس ألواناً من الاحتكار تتحكم عن طريقها بخيرات الطبيعة والمواد الخام الثمينة التي تغذي الصناعة الحديثة، (النفط، الحديد، الفوسفات، وغيرها..) وهي المواد التي تنتجها الدول المستضعفة نفسها، فتشتريها الدول المتحكمة بأبخس الأثمان وتفرض لمنتجات الصناعة والزراعة الضرورية أفدح الأثمان والشروط التي تقيد حرية هذه الدول وتستنزف ثرواتها.

ونتيجة لهذا الوضع التنظيمي الجديد للمجتمع، وللمجتمع الدولي، لم يعد الاحتكار خطراً محلياً في دائرة مدينة أو جزء من وطن، أو خطراً على شعب معين، أو على مجموعة إقليمية وإنما غدا خطراً عالمياً يهدد حرية وكرامة وحياة قارات بكاملها نتيجة لسيطرة القوى العظمى على الاقتصاد